الرومانتيكية فى الأدب الصوفى

للأستاذ أحمد السيد عوض الله
المدرس بالأزهر

(٢)

وإلى هنا ننتقل إلى الحب الصوفى لنرى الاتجاهات العلوية التى يسير فى فلكها، والأهداف التى نبتغيها لنعلم أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا:

الحب الصوفى لا ينكر الحب الإنسانى بل إن المتصوفين يرون أن هذا الحب خطوة جدية للوصول إلى الغاية المنشودة وهى حب الله عز وجل ...

فكل حب إنسانى لا تشوهه الميول الرخيصة ولا يدنسه الهوى المرذول، ولا تتحكم فيه الغرائز الدنيا، جدير بأن يرتفع بصاحبه عن تلك المادية المبتذلة إلى معارج اللطف والإلهام، فالحب الإنسانى أول الطريق إلى الحب الإلهى، وكيف لإنسان أن يغرق فى بحار الوجد وضياء الملكوت؟!.

وكيف لقلبه أن يتفتح للمعارف الربانية دون أن تمس عضلته عاطفة الحب المتهادية فى نسمات الشوق المنساب؛ ولذا نجد الصوفيين يهتمون بالشعراء العذريين الذين أحبوا وذاقوا طعم الحب صابا وعلقما دون أمل أو رجاء.

وهم إنما يقبلون على هذا الأدب لا لأنه يمثل وجهة نظرهم بل لأنه وسيلة وطريق إلى الحب الإلهى أولا، ولأن الألفاظ العادية فى كلام الأدباء لا تسع معانيها العميقة وأفكارهم المتلألئة ثانيا ...

إن ساعة وجد عند الصوفى تغمر قلبه بضياء الله وتتجلى له فيها المشاهدات الربانية بروعتها وجلالها.

نعم هذه الساعة كفيلة بأن تعقد الألسنة وتقف أمامها الألفاظ العادية مضمحلة متهافتة ...

لذلك وجد الصوفيون متعة عميقة فى قراءة أدب العذريين،،

وكان من الممتع حقا أن يجدوا من يعبر عن خواطرهم بهذا اللهب المتقد من الألفاظ حينا وبالسلاسة والهدوء حينا آخر، تماما كنفس الصوفى، تارة يجذبه الوجد فإذا به يشعر بالقلق والخوف، وتارة أخرى تهدأ

روحه فإذا هو ماء نقاح ، وعندما يشرق النور فى القلب ويندلع فيه لهيب الحب يكون الصوفى قد بدأ يعرف الطريق .

وفى لحظة من لحظاته الحالمة ترتفع روحه الهادفة إلى درجة أعلى فى الحب حيث يترك ذلك الحب الفانى ليستبدله بحب أبدى لا يزول ... وإن هذا المنهج فى تدرج الحب طبيعى كطبيعة النفس الإنسانية... والمشاهدات تؤيد مذهب الصوفيين فى الحب : فمن الناس من تجده فى الحياة فظا غليظا لا تطرق المعانى السامية قلبه ، ومنهم من تراه رقيقا حساسا فإذا بحثت عن سبب الخشونة فى ذاك والرقة فى هذا وجدته الحب والخلو من الحب ...

ويحرص الصوفيون على تدعيم طريقتهم هذه - حينما يتناولون قصص الحب - بالبحث والتمحيص، فعبدالرحمن الجامى الأديب الصوفى العملاق ، يتناول قصة « مجنون ليلى » من زاويته وعلى طريقته ... فيرى أن قيسا هام بليلى وأحبها حبا فتح شغاف قلبه حتى أشرقت فيه الأنوار الإلهية فإذا به يترك ليلى وينسى حبها لأنه وجد الحب الأبدى الخالد الذى لا ينضب معينه ولا يجف فيضه :

ويلح الصوفيون فى التمسك بهذا التدرج فى الحب : فقد روى أن رجلا ضاع حماره فمر على شيخ صوفى يعظ تلاميذه ، فسأل الرجل الشيخ عن الحمار ربما يكون قد مر عليهم وهم فى درسهم فقال الشيخ لتلاميذه من منكم من لم يحب ؟ فقام تلميذ وقال : أنا ياسيدى. فقال الشيخ لصاحب الحمار : خذ هذا فهو حمارك فلا فرق بينهما إلا طول الأذنين »

والقصة طريفة ، وهى تدلنا على مـــدى حرص الصوفيين على العشق الإنسانى الطاهر الذى يكون سببا فى الوصول إلى العشق الإلهى ...

وحرى بنا - وقد وصلنا بالحب إلى هذه الدرجة ودفعناه من الأرض إلى السماء - أن نبحث كنهه وطبيعته وأن نكشف اللثـــام عن نفحاته الشذية وأنغامه القدسية ، وأن نعرف مدى تطوره وتساميه لنغترف من كمره ونشرب من كأسه .

... وإذا كان الرومانسيون قد وصلوا بالحب إلى درجة الجذب فإن الصوفيين قد قطعوا أشواطاً بعيدة المدى فى حبهم الصاعد وارتفعوا بطبيعته حتى أوصلوه إلى الذات العلية.

وهنا نتساءل كيف يحب العبد ربه؟

ويجيب الصوفيون بأن محبة الله فيض ينبع من القلب وإشراق ينبثق من ذات النفس وتتمثل فيه قوة الجذب حيث تتسلط أنوار السماء على قلب المحب وتغمر ضميره فيجد فى ذاته أنسا وصفاء وطهراً ونقاء . والقلب هو المصدر الوحيد لهـــذه الشحنات الروحانية ، يتقبلها كفيض من الله ثم يدفعها منطلقة سابحة تصعد فى السماء .

والشعور بالجمال سلم يرتقى منه المحب إلى غايته .. حيث يتعمق مظاهر الجمال فى الطبيعة الحالمة وتذوب نفسه وجداً بها وحباً لها ، . ويرى بروحه التى نفحها الله لمحة نورانية الجمال باسطا أجنحته على الوجود الضاحى والكون المبسوط .

إنه يرى بقلبه الشفاف جمال الأرض حيث ينعكس عليها نور السماء فيضفى على مافيها ومن فيها رقة وعذوبة تسرى فى النبات والحيوان كما تسرى فى الإنسان ...

وجمال الطبيعة يضفى على القلب هيبة وجلالا يستشعرهما المؤمن فى ضميره ويحس بهما فى وجدانه ، فإذا به يقع خاشعاً متبتلا فى محراب هذا الجمال يتأمل صنع الله الذى أتقن كل شىء .

ثم تتداعى به المعانى — كما يقول علماء النفس فيركز فكره فى خالق الكون تاركا جمال الكون .

وعند الشروع فى هذا الانتقال من جمال الوجود إلى جمال خالق الوجود تكون القوة الواعية لدى المؤمن مدركة كل مايجول بأفكاره من خيالات رائعة جميلة .

وما يلبث على هذه الحال وقتا قد يطول وقد يقصر حتى ينسكب فى قلبه النور الإلهى فاذا به شىء آخر حيث يدركه فى بعض الأوقات المتألقة سكر إلهى ونشوة ربانية ...

وهنا نقول: إن العبد أدرك حب الله، فيغيب عن نفسه فى هذه الأوقات السعيدة، ولا يرى أمامه إلا ذلك النور الذى يتلألأ فى ملكوت الله .

وهذه التأملات الجميلة التى توصل إلى الحب الإلهى لا يمكن أن تحل فى قلب لا يعبد الله ؛ لأن سداها ولحمتها خشية الله والوقوف عند حدوده .

والحب الإلهى بهذه الكيفية لا يؤدى إلى التعطيل فى أى من العبادات التى فرضها الله على عباده ،

وصحيح أن المحب الإلهى تحصل له غيبوبة ويحصل عنده سكر إلهى ، ولكن ليس صحيحا أن هاتين الحالتين تستدعيان ترك فرائض الله ، ذلك أن

الحب متبادل بين العبد وربه، وما كان لعبد يحبه الله عز وجل أن يتركه دون أن يسدل عليه حمايته، ويؤيده بروح من عنده، ويجعل منه ذلك الإنسان الذى يحافظ على أوامر الله.

وجدير بمن يصفو قلبه هـذا الصفاء وتتطهر نفسه ذلك الطهر ألا يتدنس بمعصية!! كيف والمعصية تحدث غشاوة على القلب تناقض ذلك الصفاء.

وإذن فلا مناص من الحكم بأن الحب الإلهى ولو بلغ درجة الفناء لا ينافى القيام بالعبادات، بل هو طريق مستقيم لتزكيتها والإخلاص فيها. على أن الصوفيين أنفسهم لم يقولوا بفكرة التعطيل حتى عند بلوغ الحب نهايته، ووصول المحب إلى درجة الفناء فى الله واستمع إن شئت لكلامهم فى المحبة لترى بنفسك حدودها ومعالمها ولتعلم أنها لا تتنافى مع التكاليف.

قال يحيى بن معاذ «ليس بصاوق من ادعى محبته ولم يحفظ حدوده»، وقال القشيرى فى الرسالة «وأما محبة العبد لله تعالى فحالة يجدها من قلبه تلطف عن العبارة، وقد تحمله تلك الحالة على التعظيم له، وإيثار رضاه وقلة الصبر عنه والاحتياج إليه، وعدم القرار من دونه، ووجود الاستئناس بدوام ذكره له بقلبه. وليست محبة العبد له سبحانه متضمنة ميلا ولا اختطاطاً، كيف وحقيقة الصمدية مقدسة عن اللحوق والدرك والإحاطة».

ومن هذا النص تتبين حقيقة الحب الإلهى عند المتصوفين وأنه يتلخص فى ثلاث:

١ — الحب الإلهى نور يقذفه الله فى قلب المحب يعجز البيان الإنسانى عن التعبير عنه.

٢ — حب الله يحمل العبد على تعظيم ربه وذكره فى كل وقت وطلب رضاه فى كل حين، ولن يتأتى رضا الله سبحانه إلا إذ قام العبد بجميع التكاليف التى فرضها الله عليه.

٣ — ليس الحب الإلهى كالحب الإنسانى عاطفة متبادلة بين طرفين متجانسين، لأن المحب بشر والمحبوب ليس كمثله شىء.

وقد روى أن أبا عبد الله التروغندى دخل بيته فوجد فيه منوين حنطة — وكان الناس يموتون من الجوع بسبب مجاعة حلت بهم — فأخذته الرحمة بالناس، وقال الناس يموتون من الجوع وفى بيتى حنطة؟ وخولط فى عقله فما كان يفيق إلا فى

أوقات الصلاة، يصلى الفريضة ثم يعود إلى حالته، فلم تزل كذلك إلى أن مات.

فالحب الإلهى إذن قوة هادفة تنمى الروح وتقوى دعائم النفس فتدفع الإنسان إلى العمل لمرضاة ربه وبناء مجتمعه على أساس قوى سليم. وإذا كان بعض المحبين يصلون فى حبهم إلى درجة الفناء فليس معنى هـذا أن تتحطم أجسادهم فيقعدون عن الجهاد فى سبيل الله، وإنما هى الروح المتسامقة تيصل بالسماء فتطرب وتتيه ثم ترجع إلى ذاتها فتبلورها فى إطار من نور، فإذا الإنسان قوة صاعدة تنبثق منها الأعمال الصالحة والفضائل العليا.

وواضح من هذا أيضاً أن درجة الفناء فى الحب لا تعنى فكرة الحلول، ففناء الروح فى ذاتها أمام نور الله لا يعنى على الإطلاق أن يحل الله فى هذه الروح أو تفنى هذه الروح فى الذات القدسية، ومن هنا لا يحق لإنسان أن يدعى أن الفناء فى الحب يحمل فى طياته فكرة الحلول، وأن المتصوفين المسلمين أخذوا هذه الفكرة عن بعض الديانات، أو تأثروا بالمدارس التى سبقتهم فى الكلام عن الحب الإلهى.

ومن هنا نعلم أن المتصوفين قد جعلوا للحب الإلهى قواعد وأسساً لا يستطيع الإنسان أن يصل إلى الله بدونها.

وإذا كان الرومانسيون قد بدأوا حبهم إنسانياً وتدرجوا به إلى درجة الجذب فإن المتصوفين يبدأون حبهم لله بوسيلة أخـرى هى تقوى الله عز وجل.

وإنما ذكرنا القواعد التى يسير عليها الحب الإلهى وبينا بعض النواحى التى يظن أنها غامضة. لنستطيع بعد ذلك أن نوضح أدبهم من شعر ونثر فى الحب على ضوء هذا البيان...

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لنبين كيف سما الصوفيون بهذه العاطفة وجعلوها منتهى آمالهم وغايتهم التى ليس بعدها غاية؟.. وكيف أنهم سبقوا الرومانسيين فى الكلام عن هذا الحب ورسموا لهم الطريق واضحاً جليا يمشون فى نوره ويستضيئون بهديه؟ ومن الفخر أن نقول: إن اللاحق لم يتقدم على السابق، بل إنها قطرة من بحر، وضعف يحاول أن يطاول القوة وزهرة يانعة من بستان كبير؟

البحث مستمر